حسن المحاضرة

في تاريخ مصر والقاهرة

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى
(١٩٦٧ م ـ ١٣٨٧ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يعتبر دخول العرب مصر سنة ٢٠ من الهجرة على يد الصحابيّ الجليل عمْرو بن العاص مولدَ تاريخ جديد لهذه البلاد، ذات الماضى البعيد ؛ فلم يكَدْ يتمّ الفتح، وتستقرّ الأحوال بها بعد الوقائع الحربية المعروفة ، حتى أخذ سُكّانها يدخلون فى دينِ الله أفواجا ؛ وتنشرح صدورهم للقرآن الكريم ، وتصطنع ألسنتهم اللسان العربىّ المُبين ؛ وتُصبح العربيّة لغة الدّواوين . ثم يرحلُ إليها أعيانُ الصحابة وجِلّة التابعين ، ويهوِى نحوها الفُقهاء والقراء وحفاظ الحديث ورُواة اللغة والأدب والشعر ؛ وتُبنى فيها المساجد ؛ لإقامة شعائر العبادات، ومدارسة علوم الدين ، وللفصل فى ساحتها بين الناس ؛ كما أنشئت فيها المدارس لتلقّى العلوم والمعارف ، وألحقت بها خزائن الكتب ، لجذب العلماء من شتى الجهات ؛ مما ارتفع به شأنُ العلم ، وَازدهرت الفنون والآداب .

وتولّى مقاليدَ الحكم فيها على مرّ العصور من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين ؛ مَنْ فتحوا أبوابَهم للعافين والوَافدين ، واستمعوا إلى الشّعراء والمادحين ، وأجازوا على التأليف والتصنيف ، وقاموا فى بناء الحضارة الإسلامية بأوْفَى نصيب .

بل إن مصر كانت ـ وما زالتْ ـ حاميةَ المِلّة والدين ، وراعيةَ الإسلام والمسلمين ، وقاهرة الغزاة والمعتدين ؛ مما جَعلها أعزّ مكان فى الوطن العربىّ الكبير .

فكان من حقّ هذا الإقليم أن يشغلَ مكانه فى التاريخ ، وأن يُخَصّ بعناية العلماء والمؤرخين ؛ وأن تُفرَد لوصف ملامحه المؤلّفات ، وأن يُتدارس تاريخُه فى كل مكان

وزمان . . . وكذلك الأمر والحمد لله كان ؛ فقد نبغ من العلماء القُدامى والمحدثين مَنْ وَضعوا فى تاريخ مصر المصنفات تختلف طولا وقِصرا ، وتتباين طَريقة ومنهاجا ؛ منهم ابن عبد الحكم وأبو عمر الكندىّ وابن ميسر والمسبّحى والقضاعىّ وابن دقماق وابن زُولاق والأدفوى والعماد الأصبهانى وابن حَجر والمقريزىّ والسيوطىّ والجبرتى وأبو السرور البَكْرىّ وابن تَغْرى بردى وابن إياس .

***

وكتاب حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، الذى صنفه الجلال السيوطىّ من أنفس الكتب التى صدرت عن هؤلاء الأعلام ، وأعذبها مَوْرِدًا ، وأصفاها منهلاً ، وأسَدِّها منهجا ، وأوضحِها فُصولا وأبوابًا ، وأوفاها استيعاباً وشمولا ، سلكَ فيه طريقا قَصْدًا ، ليس بالطويل المستطرد المشوّش؛ ولا بالمقتضَب الخالى من النفع والجدْوَى ، بدأه بذكر ماوَرَد فى شأن مصر من الآثار فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم ثناه بذكر تاريخ مصر فى عهدها القديم ؛ عهد الفراعنة وبُناة الأهرام ، على حسب ماوقع لديه من المعارف ، وعلى حسب ما كان شائعا فى عصره ، ثم وصفَ الفتح الإسلامىّ وماصاحبه من وقائع وأحداث ، وماتمّ من امتزاج المصريين بالعرب تحت راية الإسلام ، ثم ذكر الوافدين على مصر ومَنْ نبغ فيها من أصحاب المذاهب ، ومَنْ عاش بها من الحفاظ والمؤرّخين والقُرّاء والقُصّاص والشعراء والمتطبّبين وغيرهم ؛ مع ذكر نُبذٍ من حياتهم وتاريخ موالدهم ووفياتهم. ولم يخلُ كتابه من تاريخ الولاة الذين تعاقبوُا عليها ، والقضاة الذين حَكَمُوا فيها ، والحكومات التى قامت بها ، ومابُنى فيها من المساجد والمدارس والخانقاهات .

ومن أمتع ماورد فيه تلك الفصولُ التى عقدها فى ذكر عادات المصريين ومواسمهم وأعيادهم والأسباب الدائرة بينهم؛ وما كان فيهامن أندية الأدب ومجالس الشعر والسمر ؛ على منهج طريف أخّاذ .

وكان سبيله فى كلّ ماأوردَه من هذا الكتاب النقلُ عن الكتب المتخصّصة فى هذا الشأن ، مضافاً إليها ماوقع له من المُشاهدة ؛ أو مانقله سماعا عن علماء عصره ؛ من الشيوخ والأقران والتلاميذ .

وللسيوطىّ منهج معروف يذكره فى مقدمات بعض كتبه ـ وخاصة المطولة منها ـ أن يورد مصادره من الكتب التى اعتمد عليها وأسماء مؤلِّفيها ؛ فعل ذلك فى كتاب بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنّحاة ، وكتاب الإتقان فى علوم القرآن ؛ وفعل ذلك أيضا فى هذا الكتاب ، قال: «وقد طالعت على هذا الكتاب كتباً شتّى ، منها فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفضائل مصر لأبى عمر الكندىّ ، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقُضاعىّ ، وتاريخ مصر لابن ميسر ، وإيقاظ المتغفّل وإيعاظ المتأمّل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوَّج الزُّبيرىّ والخطط للمقريزىّ ، والمسالك لابن فضل الله العمرىّ ، ومختصره للشيخ تقىّ الدين الكرمانىّ ، ومسالك الأبصار لابن فضل الله ، ومختصره للشيخ تقىّ الدّين الكرمانىّ ومباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبد الله الأنصارىّ ، وعنوان السِّير لمحمد بن عبد الله الهمذانىّ ، وتاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر لمحمد بن الربيع الجيزىّ ، والتّجريد فى الصحابة للذهبىّ ، والإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر ، ورجال الكتب العشرة للحُسينىّ ، وطبقات الحفّاظ للذهبى ، وطبقات القراء له ، وطبقات الشّافعية للسّبكى ، وللإسنوىّ ، وطبقات المالكية لابن فَرْحون ، وطبقات الحنفيّة لابن دُقماق ، ومرآة الزّمان لسبط ابن الجوزىّ وتاريخ الإسلام للذّهبى ، والعِبَر له ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وإنباء الغمر بأبْناء العُمر لابن حَجَر ، والطّالع السعيد فى أخبار الصعيد للأدفوىّ ، وسَجْع الهديل فى أخبار النيل لأحمد بن يوسف التيفاشىّ والكردان لابن أبى حَجلة ، وثمار الأوراق لابن حجة » . هذا غير ماذكره فى تصاعيف الكتاب من المراجع الأخرى .

***

وقد طبع هذا الكتاب عدّة طبعات ؛ يَشيع فى معظمها التصحيف والتحريف والخطأ ؛

طبع طبع حجر بمصر سنة ١٨٦٠ م ، وطبع فى مطبعة الوطن ، سنة ١٢٩٩ هـ، وطبع بمطبعة الموسوعات سنة ١٣٢٤ هـ ، وطبع بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ ، وطبع بالمطبعة الشرفية سنة ١٣٢٧ هـ ، وطبع منه جزء صغير مع ترجمة لاتينية سنة ١٨٣٤ م ، كما أودع دور الكتب فى العالم شرقا وغربا كثيرٌ من نسخه المخطوطة .

وحينما شرعت فى تحقيق هذا الكتاب رجعت إلى نسخة مخطوطة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب برقم ٢٣٩٤ تاريخ - تيمور تمت كتابتها فى رجب سنة ٩٧٧ هـ، تقع فى ٤٦٥ صفحة، فى كل صفحة ٣٥ سطرا تقريبا ، فى كل سطر حوالى ٢٠ كلمة ؛ كتبت بخط معتاد يجنح إلى الصحة والإتقان والضبط القليل ، ووضعت العنوانات بخط أغلظ ، وفى حواشيها مايشير إلى قراءتها ومقابلتها . وقد اتخذت هذه النسخة أصلا فى التحقيق .

كما أنى تخيرت مما طبع نسختين قريبتين من الصحة : النسخة المطبوعة فى مطبعة الوطن ورمزت إليها بالحرف (ط) ، والنسخة المطبوعة بمصر على الحجر ، وقد رمزت إليها بالحرف (ح) .

ثم رجعت إلى ماتيسر لى الحصول عليه من المصادر التى ذكرها ، وما اقتضاه الأمر من الرجوع إلى الكتب الأخرى فى التفسير والحديث والأدب ودواوين الشعر ومعاجم اللغة.

هذا ، وقد جعلت من منهجى فى هذا الكتاب ألا أسرف فى التعليق ، أو استطرد فى الشرح والتفسير ؛ إلا بالقَدْر الذى يُعين على فهم النص وبه تستقيم العبارات ، محاولا أن يبدو الكتاب فى أقرب صورة من نسخة المؤلف ؛ وأن أقوم فى آخر الكتاب بعمل الفهارس المتنوعة التى تقرب نفعه ، وتُدْنِى جَناه .

وتصدر هذه الطبعة فى جزأين ينتهى الأول منهما بذكر أخبار الخلفاء الفاطميين أو كما سماهم المؤلف : « أمراء مصر من بنى عبيد » . ويبدأ الجزء الثانى بذكر أمراء مصر من حين ملكها بنو أيوب ، وينتهى بالفصل الذى عقده فى حبوب مصر وخضراواتها وبقولها .

***

وأما الجلال السيوطى المؤلف ، فقد عقد لنفسه فصلا فى هذا الكتاب[1] تحدث فيه عن

(١) حسن المحاضرة ١ : ٣٣٥ - ٣٤٤ (طبعة الحلبى)

نسبه وأجداده ، وذكر أن مولده كان : « بعد المغرب مستهلّ رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة »، كما ذكر الكتب التي درسها، والشيوخ الذين تلقى عنهم ، والبلاد التي رحل إليها،والعلوم التي حذقها،والكتب التي ألفها ؛ مما يعدّ وثيقة تاريخية في حياة هذا العالم الجليل .

وقد ظلّ السيوطي طوال حياته مشغوفاً بالدرس مشتغلا بالعلم، يتلقاه عن شيوخه أو يبذله لتلاميذه ، أو يذيعه فتيا ، أو يحرّره في الكتب والأسفار ؛ وحينما تقدم به العمر ، وأحسّ من نفسه الضعف ، حلا بنفسه في منزله بروضة المقياس ، واعتزل الناس ، وتجرّد للعبادة والتصنيف ، وألف كتابه : « التنفيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس » .

وكان رحمه الله في حياته الخاصة على أحسن ما يكون عليه العلماء ورجال الفضل والدين ، عفيفاً كريماً ، غنيّ النفس ، متباعداً عن ذوي الجاه والسلطان ، لا يقف بباب أمير أو وزير ؛قانعاً برزقه من خانقاه شيخو ، لا يطمع فيما سواه . وكان الأمراء والوزراء يأتون لزيارته ويعرضون عليه أعطياتهم فيردّها . وروى أن السلطان الغوري أرسل إليه مرّة خصيًّا وألف دينار ، فردّ الدنانير ، وأخذ الخصيّ ثم أعتقه ، وجعله حارساً في الحجرة النبوية،وقال لرسول السلطان : لاتعُدْ تأتينا قطُّ بهدية ؛ فإنّ الله أغنانا عن ذلك .

وأما كتبه فقد أحصى السيوطي منها في كتابه نحواً من ثلاثمائة ؛ في التفسير وتعلقاته والقراءات، والحديث وتعلقاته والفقه وتعلقاته، وفنّ العربية وتعلقاته، وفنّ الأصول والبيان والتصوف، وفنّ التاريخ والأدب والأجزاء المفردة، ما بين كبير في مجلد أو مجلدات، وصغير في كراريس أو أوراق . وذكر تلميذه الداودي المالكيّ أنها أنافت على خمسمائة مؤلف. وقال ابن إياس في تاريخه (حوادث ٩١١) : إنها بلغت ستمائة مؤلف .

وتقع هذه الكتب في مجلد أو مجلدات ؛ كالمزهر والإتقان والأشباه والنظائر وبغية الوعاة والدرّ المنثور في التفسير بالمأثور والجامع الصغير والجامع الكبير وأمثالها ، أو في أوراق أو صفحات ؛ كهذه الرسائل التي طبعت باسم الحاوي في الفتاوى ؛ في مجلد يحوي ثمانية وسبعين كتاباً في معظم الفنون . وقد تدارس العلماء هذه الكتب في كلّ مكان ،

وانتشرت فى حياة السيوطىّ وبعده ، وعَمرتْ بها المدارس والمعاهد ودُور الكتب ، وكاتبه المستفتُون من شتّى الجهات ؛ ممّا أثار عليه فريقاً من أقرانه ومعاصريه من العلماء ، وتحاملوا عليه ، ورَمَوه بما هو منه بَراء ؛ وكان من أشدّ الناس خصومةً عليه ، وأكثرهم تجريحاً وتشهيرا ، المؤرّخ شمس الدين السخاوىّ ، صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ؛ فقد ترجم له فى هذا الكتاب ، ونال من علمه وخلقه ؛ مما يقع مثله بين النُّظراء والأَنْداد . وانتصر السيوطى لنفسه فى مقامة أسماها : الكاوى على تاريخ السخاوىّ ؛ كما انتصر له فريق من تلاميذه وفريق من العلماء ممّن جاء بعده ؛ منهم الشوكانى صاحب البدر الطالع ؛ قال فى ترجمته للسيوطىّ بعد أن لخص مطاعن السخاوى فيه ، وردّ هذه المطاعن عنه : « وعَلَى كلٍّ حالٍ فهو غير مقبولٍ عليه لما عرفتَ من قولِ أئمّة الجرْح والتعديل ، بعدم قبول قولِ الأقران بعضهم فى بعض ؛ مع ظهور أدْنى منافسة ؛ فكيف لمثل هذه المنافسة بين هذين الرجلين التى أفضت إلى تأليف بعضهم فى بعض ! فإنّ أقلّ مِنْ هذا يوجب عدم القبول . والسخاوىّ رحمه الله وإن كان إماماً غير مدفوع ؛ لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه » .

وكانت وفاة السيوطىّ على ماذكره ابن إياس فى الخميس تاسع شهرى جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ ، ودفن بجوار خانقاه قوصون [١] خارج باب القرافة ، بعد أن ملأ الدنيا علماً ، وشهرة وذكراً »[٢] . رحمة الله عليه ؟

يناير سنة ١٩٦٧ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

(١) وضع العلامة أحمد تيمور بحثا فى قبر السيوطى وتحقيق موضعه ، ونشر بالمكتبة السلفية بمصر سنة ١٣٤٦ هـ . وفى العام الماضى قمت مع صديقى العلامة الأديب الشاعر المتفنن الأستاذ سيد إبراهيم الخطاط بزيارة قبر السيوطى ، فى ضوء ما حققه العلامة تيمور ؛ فوجدناه مقاما على مسجد ؛ يكاد لا يعرف بعد أن كانت ـ كما أخبرنا بعض من لقيناه هناك ـ الصلوات تقام فيه ؛ وتؤدى الشعائر. ولعل القائمين بأمر المساجد فى القاهرة يعنون بهذا المسجد وإعادة إحياء الشعائر فيه ، تقديرا لذكرى العالم الجليل .

(٢) انظر مقدمتنا لكل من كتابى بغية الوعاة فى أخبار النحاة و الإتقان و علوم القرآن للمؤلف.